المبحث الثاني

حادث الجبل الأصفر

ساهم الواقع الذى كان موجودا قبل الثورة والحياة التى كان الجيش الإنجليزى يرسمها للمصريين والوضع المتأزم وخصوصا فى الإسكندرية فى توجهى العلمى وتطلعاتنا ونحن صغار بجلاء المحتل ولم نر وقتها طريقا للخلاص سوى أن نكون أفراد فى الجيش فقد كانت الجيوش وقتها هى التى تحول مقادير الأمور ولأننا عشنا المشاعر الوطنية الحقيقية ونعلم أن مصر لها حق علينا بأن نخلصها من الاحتلال الغاشم الجاسم على صدرها منذ أكثر من سبعة قرون اتجهت بتفكيرى إى الالتحاق بالكلية الحربية وبالفعل التحقت بها وقضيت فترة الدراسة ورأيت عن قرب كيف يفرقون بين المصرى والجنسيات الأخرى فازدادت بداخلى المشاعر الوطنية التى ألهبت صدرى ولكن لم يحن الوقت فالخلاص كان يحتاج إلى ترتيبات كبيرة وفى تلك الأيام كان الشارع يغلى على كافة المستويات والمقاومة على أشدها يسير معها فى نفس الطريق الاتجاه الدبلوماسى الذى أسفر عن توقيع اتفاقية الجلاء سنة 1936.. وبعد تخرجى من الكلية تم تعيينى فى لواء الحدود بالجبل الأصفر وكان أغلب عساكره من السودان والنوبة وفي أحد الأيام تلقيت مكالمة تليفونية من الشاويش المسؤول عن وحدتي في منتصف الليل أخبرني بأنه لا يجد طبيبًا لتوليد زوجته حيث يسكن بالجبل الأصفر قريبًا من المعسكر، فأخذت سيارة تاكسي ومعي الطبيب وتوجهت إليه وتم إنقاذ زوجته و وبقيت فى المعسكر حتى موعد طابور الصباح وبعد الطابور توجهت أنا والشاويش إلى الجراج لاستقلال السيارة وكان الجيش الإنجليزى قد أعطى

الجيش المصرى مجموعة من السيارات بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وكان من نصيب حرس الحدود بعضا منها وأثناء وجودي في الجراج مع الشاويش أدار السيارة وكانت أول مرة يستخدم فيها هذه النوعية من السيارات فوقفت أمامه حتى يخرج بسلام من الجراج .

«وأنا أقول له «تعالى» فاختلطت عليه الفرملة والبنزين وبدلا من أن يضغط على الفرملة ضغط على البنزين وأنا أمامه ووجدتنى أقفز فوق صندوق يرتفع حوالي نصف متر عن الأرض كنت قد حركته قبل أن تتحرك السيارة ولولا قدر الله وأنني ارتفعت فوق هذا الصندوق لما نجوت من أمام تلك السيارة والتي أحدثت عدة كسور في أرجلي وفخذاي».. وحملوني إلى المستشفى بين الحياة والموت ووجدوا أن الموضوع «قدري» فبعثوا إلى أهلي في الإسكندرية لكي يحضروا إلى مستشفى القوات المسلحة ومكثت شهرًا بالمستشفى حتى استطعت أن أتكلم وعندها وجدت أمامي رئيس أركان حرب القوات المسلحة إبراهيم باشا عطا الله وكان هذا في عام 1945 في أعقاب الحرب العالمية الثانية وجاء معه العديد من القادة والضباط ومدير المستشفى وكان الخبر قد وصل إليه بأن عسكري حاول أن يقتل «ضابط» وكانت رتبتي وقتها «ملازم» فدخل وقال لي وأنا نائم على السرير «بصراحة أنت ستخرج من الجيش غير لائق طبيًا لأنه لا يجوز بعد هذا الحادث أن تكمل بالجيش ... وأنك كما قال الأطباء ستظل بعكازين لمدة ثلاثة سنوات.. والسبب الشاويش الذي كسر لك أقدامك ونظرًا لأنك لم تكمل 15 سنة بالجيش فليس لك معاش ولك مكافئة نهاية الخدمة وهي عبارة عن 150 جنيه وأن الشاويش الذي ضيع مستقبلك لن أتركه وسوف أعطيه أقصى جزاء أستطيع أن أعاقبه به لأنه أضاع مستقبلك ثم سكت وقال لي ... أنت تطلب إيه؟ فقلت له أطلب ترقية هذا الرجل فنظر إلى من حوله اعتقادًا منه أن الضربة لم تأتي إلى قدماي فقط بل في رأسي» فقال لي «طب ليه» فقلت له «هذا الشاويش طلب مني كذا وسردت له قصة ولادة زوجة الشاويش أنا خدمته ولا أتصور أنه كان يقصد هذه

الحادث هذا بجانب أنه كان مرهقًا وأنا أيضًا لأننا لم ننم طوال الليل وأيضًا أنا مخطئ لأنني واقف أمامه فأنا المخطئ وهذا الرجل مظلوم من جميع النواحي وأنا أطالب بترقيته» فقال لي «واحد أضاع مستقبلك وأنك ستترك الجيش ولن يكون لك معاش كل هذا وتطلب ترقيته» فأخرجت له ورقة كان الشاويش تقدم بها لي يطلب الترقية لأن عليه الدور وأنا كنت كاتب عليها ليوافق رئيسي على الترقية، فأخذ الورقة وكتب عليها «يرقى» وقال لي «لم أرى أحدًا بهذا الشكل» فمسيرة حياتي كانت هي التسامح من البداية وهو مبدأ إسلامي كنت حريصًا جدًا على ألا أتركه.. وقبل أن ينصرف قال لي رئيس الأركان «أنت ستكون رجل عظيم في يوم من الأيام» وبعدها وجدت تعاطفًا من الضباط بالمستشفى لأنهم كانوا يجدونني أصلي وأقرأ القرآن على الدوام فيتعجبون «واحد سيترك الجيش بعد أيام ويفعل هذا».

مفترق الطرق ...«إقرأ»

أثناء وجودي بالمستشفى انحصر تفكيري فيما سأفعل بعد خروجي من الجيش وفي أي طريق سأسير وكنت أدعو الله دائمًا وتذكرت أن أول آية أنزلها الله على رسولنا الكريم «اقرأ» فقررت أن ألجأ إلى ما قاله الله وهو «العلم» وتذكرت قول الله تعالى «إن مع العسر يسرا» وأيقنت أن اليسر قادم ويجب ألا أغضب إذا سرت في هذا الطريق ولم يكن أمامي غير هذا وأخذت أفكر فيما سأقرأ وبماذا أبدأ؟ فوجدت أن الضباط الإنجليز في مصر نظرًا لبعدهم عن إنجلترا ولا توجد جامعات فإنهم يدرسون في «البريتش كانسل» حيث هذا المعهد الإنجليزى بعمل ورش في الاقتصاد السياسي فطلبت من بعض المعارف والضباط الالتحاق به عن طريق الجيش لأننى لم أنهى الخدمة حتى الآن فوافقوا وكانوا يعطوني سيارة للذهاب إلى المعهد البريطاني في «الجزيرة» كل هذا وأنا أحمل «العكازين» وبدأت أقرأ في اتجاهات أخرى وكان في نفس الوقت توجد بالقوات المسلحة «كلية أركان الحرب الملكية» وهي التي يتخرج منها القادة فبدأت أذاكر لكي أتقدم لهذا

الامتحان الذي يتقدم إليه ما يقرب من 3000 لا يجتاز الاختبار سوى 30 فرد فقط وكنت وقتها مازلت بالمستشفى لأنني لو خرجت منها سأكون خرجت من الجيش وبالفعل التحقت بكلية أركان الحرب.. هذا بجانب أننى كنت شغوفا جدا بالعلم فبدأت فى دراسة العلوم السياسية وحصلت على دبلوم من المعهد البريطاني كل هذا وأنا فى المستشفى حيث تعاطفت معى إدارتها وكلما حان وقت خروجى كانوا يعدون تقرير بأننى مازلت أحتاج فترة أخرى للعلاج وكانوا يضعوا لي كورسات علاج جديدة مساج وغيره وبدأت رحلة العلم لأنها الوسيلة الوحيدة وهي التي قالها الله «اقرأ» وأذكر أنه قبل التحاقي بكلية القادة والأركان وأنا بالمستشفى وكنت ماأزال على قوة الجيش كان هناك امتحان للترقي وأنا «يوزباشى» فاجتزت الامتحان وكنت الأول فيه... وحدث أمر غريب أنه بعد الامتحان طلب رئيس الأركان الجديد أن يقابل الأول في امتحان الترقي ومعه طالب آخر راسب، فدخلنا عليه أنا على «عكاكيزي» ولست وجيهًا في اللبس والآخر كان بيلعب رياضة وجمسه كويس وعندما دخل أدى التحية بطريقة عكسرية فاعتقد رئيس الأركان أن زميلي هذا هو الأول وأنا الراسب لأنه لم يسألنا عن الأسماء فأخذت ساعتها سيلاً من الشتائم وأخذ الآخر من عبارات الثناء والتشجيع.. ودق جرس الهاتف فخرجنا من عنده فحكيت لمدير مكتبه ما حدث فقال لي لا تغضب هو لن يكتب هذا وهذه كانت بداية دخولي لكلية أركان الحرب وقبلها كنت التحقت بجامعة القاهرة للدراسة بقسم العلوم السياسية التابع لكلية التجارة وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، وبعدها دخلت كلية أركان الحرب بعد نجاحي في الاختيار وتم اختيار الثلاثين من جميع المتقدمين وكان وقتها عبد الناصر وزكريا محيي الدين وصلاح سالم مدرسين بها وهذا فى العام 1952 قبل ثورة يوليو ... وقد كان توجهى للعلم حبا فيه ولكى أجد وسيلة أعيش منها بعد تركى للخدمة وكنت محبا للصحافة وكانت تلك بداياتي مع الإعلام في مجلة روزاليوسف.

الرسم في حياتي

أحب الرسم منذ طفولتي وتعلمته من صلاح طاهر وكان أستاذي في مدرسة العباسية بالإسكندرية وكان شابًا وجيهًا. شكله جميل وهو سوري تعلمت على يديه مبادئ الرسم. وفي أحد المرات قالت لي زوجتي أن الرسم والأدوات والألوان سوف تتلف البيت فيه غرفة فوق ممكن تخصصها للرسم وهو ما حدث، ودارت الأيام وأصبحت وزير ثقافة وهو كان يأتي لي لكي أفتح له المعارض وكنت أوعاكسه وهو شكله جميل وكل البنات حوله فكنت أقول لمن حوله في دعابة أنا عايز أقولكم حاجة «صلاح دا أكبر مني بـ20 سنة» وهو الذي علمني الرسم دا كان أستاذي، وكنت قد وضعته في المجالس القومية المتخصصة بعدما ذهبت إليها وهو كان لا يحب وزير الثقافة الحالي فعندما خرجت أتى وقال لي «تمسك رئيس مجلس إدارة جمعية الفنون الجميلة التي يرأسها هو.. فرفضت فعملوني رئيس فخري لها» والرسم عندي هواية جميلة وربنا هو الذي يرزق.

– وفي أحد المرات وأنا أرسم عملت لوحة زرقاء ووضعتها على الأرض وكان بجوارها علبة زنك أبيض وعند دخول طارق إلى المنزل وهو يجري اصطدم بعلبة الزنك فطرطشت عليه فتأسف، فوضعتها على الحائط وعند نزول اللون الأبيض على الأزرق أصبحت هناك أشياء غريبة على اللوحة وجاءني وزير صديقي فقال لي أنا أعلم أنك بترسم وأريد أن أرى بعض الأشياء فأخذته إلى السطح وقلت له لأنه ممنوع أن أرسم بالمنزل، وأخذ الوزير يطالع اللوحات وأعجبته اللوحة التي سكب عليها طارق الزنك الأبيض وقال لي أنا أريد تلك اللوحة وأخرج شيكًا من جيبه وكتب فيه 5 آلاف إسترليني فقلت له هذه اللوحة هدية مني إليك لكن أنا لا أبيع لوحات واحتفظ بالشيك إلى الآن، فلو أن طارق يخبط في لوحة كل يوم ويأتي بـ 5000 إسترليني.